دار الثقافة العربية للطباعة
هاتف ت ٩١٦٧٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

صدر كتاب « ابن المقفع » منذ ثلاثين سنة ولكنه ما زال بعد مضى هذه المدة الكبيرة خليقاً بأن يصدر وأن يفيد منه كثيرون من الباحثين والمتعشقين الأدب العربى .

لا أقول ذلك اعتباطاً ، ولا افتخاراً ، ولا ادعاء ، ولا رغبة فى التزيد فى القول . ولكنى أقوله معتمداً على أقوال غيرى من الباحثين أو الدارسين الذين صرحوا لى مراراً بأن بحثى عن « ابن المقفع » ما زال جديداً فى بابه بالرغم من كثرة ما ظهر من الكتب الجليلة فى دراسة هذه الشخصية الأدبية الكبيرة ، وبالرغم ما كتب من الأبحاث التى قصد بها أصحابها إلى نيل درجة الدكتوراه فى الآداب فى موضوع خطير كموضوع هذا الكتاب .

وذلك مما دعانى إلى إصدار هذه الطبعة الثالثة وأنا واثق من أن طبعات أخرى كثيرة ستصدر من هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى .

ترى — لماذا يحتفظ هذا الكتاب بجدته إلى اليوم ، ولماذا أحببته حباً لا يدانيه حب لكتاب آخر من كتبى إلى اليوم ؟

الحق . لقد كان « ابن المقفع » أول شخصية كبيرة فى تاريخ الأدب العربى حظيت بصداقتها ونعمت بأدبها منذ تخرجى فى كلية الآداب

جامعة القاهرة . وقد أحسست لذة عميقة فى هذه الصداقة ربما لم تتح لى بكمها وكيفها مع كثيرين من الشخصيات الأدبية والصحفية التى سعدت بصحبتها فى الثلاثين سنة الماضية .

أحببت ابن المقفع لأنه بطل من أبطال الدفاع عن حرية الرأى — تلك الحرية التى عاشت البشرية تدافع عنها وستظل تدافع عنها إلى أن يبدل الله الأرض غير الأرض والسماوات : دافع عن هذه الحرية فى مجال العقيدة حتى اتهمه الناس بالزندقة . ودافع عنها فى مجال السياسة حتى قالوا إنه لقى مصرعه على يد الخليفة المنصور بسبب الرسالة « الهاشمية » التى انتقد فيها ابن المقفع سياسة هذا الخليفة .

كما أحببت ابن المقفع لأنه بطل الثقافة الفارسية التى جعل منها عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الإسلامية . ولولا جهود هذا الرجل فى نقل التراث الفارسى إلى اللسان العربى لما استطاعت الثقافة الفارسية أن تشق طريقها إلى هذه الغاية وتصبح فى وقت وجيز جزءاً هاماً من أجزاء الثقافة الإسلامية ، وجزءاً هاماً كذلك فى حضارة العالم الإسلامى .

ثم أحببت ابن المقفع لاختيار أدبى فنى خالص . وخلاصة هذا الاعتبار أننى نظرت إليه — بل نظر التاريخ نفسه إليه — على أنه أول من حمل عبء النثر الفنى أو الكتابة العربية مع صديقه عبد الحميد ابن يحيى الكاتب منذ أواخر الدولة الأموية .

الحق كذلك أن كل واحد من هذه الاعتبارات الثلاثة المتقدمة كاف لأن يستأثر بحبى لابن المقفع وسعادتى بصداقة ابن المقفع واعتزازى

بهذه الصداقة المتينة إلى اليوم . وأخيراً وبعد مضى ثلاثين سنة على صدور هذا الكتاب يسعدنى كذلك أن أذكر للقراء شيئاً منعنى الحياء من ذكره فى كل من الطبعتين السابقتين . وهذا الشيء هو أننى من أجل الكتاب الذى كتبته عن ابن المقفع فى عام ١٩٣٧ أصدرت كلية الآداب قراراً وافق عليه مجلس الجامعة بإعفائى من درجة الماجستير والسماح لى بالتقدم مباشرة للحصول على درجة الدكتوراه .

وأى تكريم لى ولهذا الكتاب يكون أكثر مما فعلته الجامعة إذ ذاك ؟

والله أسأل أن ينفع به عشاق الأدب العربى والفكر العربى ، والوطن العربى ، والله ولى التوفيق ؟

عبد اللطيف حمزة

مصر الجديدة فى أول أغسطس سنة ١٩٦٥

الباب الأول

الفصل الأول

الشعب الفارسى بين الشعوب الإسلامية

بزغت شمس الإسلام وباسمه تقدم العرب فى فتوحهم ، وما كاد يتم للعرب هذا الفتح حتى نشأ عن ذلك ما نشأ من المزج بين الأمة الفاتحة والأمم التى غلبت على أمرها . ولكن هذا المزج لم يحدث حتى أفاقت هذه الشعوب من دهشة الفتح — ثم حدث تفاعل قوى بينها جميعاً وأنتج هذا التفاعل شعباً جديداً وعقلا جديداً وأدباً مستحدثاً وفلسفة مستحدثة . وذلك أن العربى قد اضطر منذ تلك الفتوح إلى أن يكون له اتصال بالفارسى والرومى، والشامى والمصرى ، والعراقى والمغربى ، والهندى والسندى . ولكل من هؤلاء ذوقه ونفسيته ، وخلقه وعقليته ، وعقيدته ، ودمه وجنسيته ، ونظامه وسياسته !

ونستطيع أن نقرأ فى كتب الأدب عامة وكتب الجاحظ خاصة ، فنجد أخباراً كثيرة فى هذه الكتب يصح أن توضح لنا شيئاً عن خصائص تلك الشعوب وما يمتاز به كل شعب منها . فهى تذكر مثلا أن العربى يمتاز بالشعر والقيافة ، والميل إلى الخفة والبساطة ، وأن الفارسى يمتاز بالحكمة والسياسة ، والرغبة فى اقتناص اللذة وجلب النعيم ، ويمتاز اليونانى بالفلسفة ومعرفة العلل والعناية بالمعانى ،

والسندى بالصيدلة ومعرفة العقاقير ، والهندى بالحساب وعلم النجوم والميل إلى فلسفة الزهد والتصوف ، والتركى بالحروب . وكما يقول الجاحظ : « ليس فى الأرض كل تركى كما وصفنا ، كما أنه ليس كل يونانى حكيما ، ولا كل أعرابى شاعراً قائفاً ، ولكن هذه الأمور فى هؤلاء أعم وأتم وفيهم أظهر وأكثر »(١) .

وإذا كان هناك اختلاف كبير بين هذه الشعوب فى أخلاقها وعاداتها ، فثم اختلاف كبير فى أهوائها السياسية أيضاً . يدلك على ذلك ما قاله محمد بن على بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة العباسية حينما اختارهم لها قال : « أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة على بن أبى طالب وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب أعلاج ، ومسلمون فى أخلاق نصارى . أما أهل الشام فلا يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان . وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدوراً سليمة وقلوباً فارغة(٢) » .

وإذن فالبصرة مختلفة عن الكوفة ، والعراق كله مختلف عن الجزيرة ، والجزيرة شىء غير الحجاز ، واللون السياسى لخراسان مختلف عن سائر الأقطار الأخرى ، وهذه الممالك كلها مندمجة تحت راية العرب أنفسهم لايعلمون بما سيجرى على يدهم من مزج واختلاط

---

(١) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٤ .

وهذه الأمم المغلوبة نفسها لاتدرى بما سيجرى عليها من عبر وأحداث !

ثم إنك تعلم أن العرب طبقوا بعد الفتح نظام الرق والولاء ، فكانت الجوارى توزع على الفاتحين وتباع فى أسواق المقينين والنخاسين أو باعة الرقيق — وتهدى كما تهدى الطرف الثمينة والمال والمتاع !

وقد غصت بيوت المسلمين بأولاد الجوارى ، حتى أصبح البيت الإسلامى مجتمعاً لأشخاص ينتمون إلى أمم مختلفة . خذ لذلك مثلا بيت المنصور ، فقد كانت فيه (أروى) بنت منصور الحميرى ، وكانت يمنية ، كما كانت فيه أمة كردية كان المنصور قد اشتراها وتسراها ، وأخرى رومية ، وامرأة ثالثة من بنى أمية قيل إنه أولدها بنتاً تسمى (العالية) . ومع ذلك فقد كان المنصور مشهوراً بالبخل مقتصداً فى اللذة ، مشغولا بتأسيس الملك ، فلم يسرف فى الأماء بالقياس إلى من أتى بعده من الخلفاء كالرشيد ، وهو الخليفة الذى يقول عنه صاحب الأغانى : « إنه قد كان له زهاء ألفى جارية » أو بالقياس إلى الخليفة المتوكل ، ويقول المسعودى إنه كان له أربعة آلاف سرية ! ! » .

وليس شك فى أن هذا التوالد الجسمانى قد تبعه توالد أخلاقى وعقلى ، أن هذا وذاك قد أنتجا معاً صنفاً من الناس يوشك أن يكون متفوقاً فى كل شىء . حتى لقد خيـــل إلى بعض الناس يومئذ أن النبوغ وقف على الأعاجم ، وأن العبقرية مقصورة على المولدين . وهذه نظرية — بيولوجية — قد ثبتت صحتها ، وفرغ العلماء والمفكرون من التدليل على صدقها . من أجل ذلك أقبل الناس إقبالا شديداً فى ذلك الوقت على هذا النوع من التوليد . قال الأصمعى : كان « أكثر

أهل المدينة يكرهون الأماء ، حتى نشأ منهم على بن الحسين بن أبى طالب والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ففاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً . فرغب الناس فى السرارى .

إذن فقد كان لهذا الضرب الجديد من الحياة التى يحياها الناس فى العصر العباسى آثار حسنة قيمة . ولكن كانت له إلى جانب ذلك آثار سيئة . فنستطيع أن نقول فى صراحة وإيجاز إن العرب فى ذلك الطور قد هدموا قوميتهم ، أو كادوا يهدمونها ، وقضوا على أدبهم وخلقهم وتقاليدهم أو كادوا يقضون عليها . ولم يكد يسلم قليلا من هذا التغيير الحادث إلا شيئان : : هما اللغة والدين . بل إنه قد نال هذين أيضاً من العبث ما نالها ، وهذه كتب الأدب والملل والنحل والتاريخ تنهض كلها دليلا على ما نقول :

غير أن أسوأ الآثار التى نجمت عن هذه الحيـــاة الجديدة أثران خطيران :

« أولهما » أثر هذه الحياة الجديدة فى الأدب العربى الخالص .

« وثانيهما » أثرها فى الأخلاق العامة .

فأما أثرها فى الأدب العربى الخالص ففى استطاعتك أن تقول إن العرب فى هذا التوليد قد سمحوا لغيرهم منذ أول الأمر بأن يجنوا على أدبهم جناية لا تغتفر . ونحن إذ ندرس الأدب العربى فى القرن الثانى للهجرة ، وهو القرن الذى تم للعرب فيه هذا المزج والاختلاط ، لا ندرس أدباً عربياً يمكن أن يكون خالصاً بحال ما ، ونحن حين نلتمس هذا الأدب العربى الخالص ، لا نستطيع أن نظفر به فيما خلفه لنا هـذا

القرن والقرون التى تلته من آثار أدبية فى أيدينا جزء عظيم منها ، ولا نستطيع أن نظفر به فى الكوفة والبصرة وما حولها من تلك البيئات الأدبية التى كانت تموج بالحياة موجا ويشتعل فيها النشاط اشتعالا . ولكننا نظفر بالأدب العربى الخالص فى البادية وما حولها ، أعنى فى تلك الجهات التى يمكن أن يقال إنها كانت بعيدة عن النفوذ الفارسى محتفظة بالروح العربى . وفى البادية كان يعيش أولئك الأعراب الذين كانوا يفدون من حين لحين إلى البيئات الأدبية المتحضرة ، ثم لا يلبثون بها إلا ريثما يعودون أدراجهم إلى الصحراء . وإلى البادية كان يرحل علماء اللغة وكان أكثرهم من الموالى ، فكان هؤلاء العلماء مخلصين حقاً للغة العربية ، ولكنهم لم يكونوا مخلصين الأدب العربى .

أخلص هؤلاء العلماء للغة ، فظلوا ينشطون إلى البادية حتى قيدوا صحيح العربية ، وضبطوا ألفاظها ، وحفظوها من العجمة التى كادت تلحقها . ولم يخلص هؤلاء العلمـــاء الأدب العربى ، فما كاد يتم لهم ما يرجون من صحة اللغة وضبطها حتى قطعوا الصلة بين البدو وبين هذه البيئات المتحضرة التى كانت تضطرب فيها الحياة ويزدهر فيها العلم ويصول فيها الأدب ، ومن هنا أتت إساءتهم إلى الأدب العربى الخالص حين يتروه أو قل ـــ أماتوه ـــ فلم نعد نجد صورة لذلك الأدب العربى الخالص . وكأننا بالعرب أنفسهم قد أغضوا عن ذلك ورضوا به ، فشاركوا الفرس فى القضاء على الأدب العربى كما شاركوهم فى القضاء على الأخلاق العربية والقومية العربية .

والحق أننا منذ بداية العصر العباسى وجدنا أنفسنا أمام أدب لا يمكن أن يكون عربياً محضاً ، ولكنه عربى فارسى ، أو هو مزاج

من هذين معاً . وأعجب من ذلك أن هـذا الأدب الفارسى الذى ظهر على استحياء فى نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية هو الذى أخذ يقوى شأنه بعد ذلك بسرعة البرق ، وبقى على هذه الدرجة من القوة وعظم الشأن حتى كان القرن الرابع الهجرى ، وكان ظهور الدويلات الحديثة ، ومنها الدولة الطاهرية والدولة السامانية ، والدولة الصفارية والدولة البويهية والدولة الغزنوية .

لم يكتف الفرس بأن يكون الأدب العربى فارسى الصبغة ، أو يكون الأديب العربى فارسياً ليس له من العربية إلا الثوب أو القشرة ، بل فكروا أخيراً أن يكون أدبهم مكتوبا باللغة الفارسية الحديثة بدلا من العربية القديمة .

فأما فى عهد دولة بنى طاهر — ولم تكن هذه الدولة مستقلة كل الاستقلال عن الدولة العباسية — فإن الأسباب لم تكن قد تهيأت بعد لظهور الأدب الفارسى . ومن أجل ذلك أثر عن الطاهريين أنهم حاربوا الآداب الفارسية ، وقيل إن رجلا أهدى إلى عبد الله بن طاهر كتابا كان قد ألف لكسرى أنو شروان فرفضه عبد الله وقال : حسبنا القرآن والسنة ، ثم أمر بالكتاب نفسه فألقى فى النار .

وأما الدولة الصفارية ، وهى الدولة التى ظفر بها يعقوب بن الليث الصفار بطريق الثورة لا بطريق التولية ، فتذكر الروايات الفارسية عن صاحبها أنه جمع أخبار ملوك فارس ، وأمر أن تترجم من اللغة الفهلوية إلى اللغة الفارسية حتى استوى له من هذا كله كتاب يقال إنه أصل كتاب الشهنامة للفردوسى . وتذكر الروايات الفارسية أيضا

أن أول من نطق بالشعر الفارسى الحديث هو طفل رضيع ليعقوب ابن الليث الصفار . وإنه وإن كانت هذه الروايات الفارسية كلها موضعا للشك فإنها مع ذلك تنهض دليلا على بداية العناية بالأدب الفارسى .

وأما الدولة السامانية — فيما بعد — فقد تجردت لإنهاض الأدب الفارسى وتوفرت على تشجيعه ، ونشأ فى كنفها أكثر من ثلاثين شاعراً وشهدت هذه الدولة نشأة الشعر الفارسى بالمعنى الصحيح ، وابتدأ فيها نظم الشهنامة ، شرع فى نظمها شاعر اسمه — الدقيقى — قيل أنه ألف منها ألف بيت حتى جاء الفردوسى فأتمها خمسة وخمسين ألفاً .

وأما الدولة البويهية وهى التى ظهرت فى الشمال الغربى من إيران ، وعظمت سلطتها حتى استولت على بغداد وادعت لنفسها نسبا ينتهى إلى (بهرام جور) فلا يكاد التاريخ يعرف عنها شيئا فى الأدب الفارسى ، ومصدر ذلك أنها قامت فى (بغداد) عاصمة الأدب العربى . ووزراها العظيمان وهما (الفضل بن العميد) و (الصاحب بن عباد) كانا لذلك من أدباء العربية ، وكذلك كان الشعراء والكتاب المتصلون بها ، ولم يعرف من شعراء الفرس ممن كانوا يتصلون بالصاحب بن عباد إلا رجلان هما المنطقى والخسروى .

وأما الدولة الغزنوية ، التى نشأت فى أواخر القرن الرابع الهجرى ببلاد أفغانستان فقد ورثت الأدب الفارسى فى ريعانه وقوة شبابه ، والتف حول محمود الغزنوى كثيرون من أدباء الفرس وشعرائهم ، وكان أظهر هؤلاء جميعاً الفردوسى الذى تنسب إليه الشاهنامة .

وفى القرن الخامس الهجرى استولى السلاجقة على آسيا الإسلامية

وأخذوا بغداد ، وبرغم أن دولة الغزنويين كانت دولة تركية فإنها حين حكمت إيران تحضرت بالحضارة الفارسية ، وكثرة شعرائها كانوا لذلك من الفرس ، ولم يعرف من شعرائها من نظم بالتركية .

إذن فقد كانت اللغة العربية وحدها لغة الأدب حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . فلما كان القرن الرابع ظهر أدب فارسى مكتوب باللغة الفارسية وكان أول ظهوره فى المواطن النائية عن مركز الثقافة العربية كخراسان . ومعنى ذلك أن اللغة الفارسية أخذت تزاحم اللغة العربية فى الأدب ، ولكن الأمر كان على غير ذلك فى العلم . فقد بقيت اللغة العربية وحدها صاحبة السلطان فى الميدان العلمى باستمرار ، وقل من العلماء من كان يؤلف علما بالفارسية فى بعض الأحيان ، فقد ألف الغزالى كتباً كثيرة باللغة العربية ، وكان من آثاره كتاب واحد فقط بالفارسية هو كتابه (كيمياء السعادة) — قال إنه ألفه بالفارسية لكى تفهمه العامة ! ! وكذلك فعل فخر الدين الرازى ونصير الدين الطوسى والبيضاوى — فكانت الكثرة المطلقة من كتبهم وتآليفهم بالعربية ، ولكنهم لم يؤلفوا بالفارسية إلا فى مرات قليلة جداً يمكننا أن نهملها وألا نأخذ بها ، وهكذا اختفى الأدب البدوى الخالص قديمه وحديثه لظهور العنصر الفارسى : وذهب بالأدب البدوى القديم كل من العصر الجاهلى والعصرى الأموى الذى يمكن اعتباره من الناحية الأدبية ظلا للعصر الجاهلى وامتداداً له ، وأما الأدب البدوى الحديث فلم يعد فى استطاعة الناس أن يظفروا به إلا فى البادية وحدها . وشعر البادية فى العصر العباسى — أعنى فى الوقت الذى كان الناس فيه مشغولين بأشعار بشار والبحترى ومسلم وأبى تمام — لم يكن يحفل الناس به

إلا قليلا ، ولم يكن يعنى به الشعراء والأدباء أنفسهم إلا لماما ، ولماذا يحفل به أولئك هؤلاء ؟ ألم يكن يكفيهم أن يعرفوا الشعر العربى القديم الذى ورثوه عن العصرين الجاهلى والأموى ؟ ألم يكن يكفيهم أن يقوموا على درس هذا الشعر وحفظه ، وتربية أنفسهم تربية شعرية على أساسه ، حتى يتسنى لهم بذلك أن يصوغوا شعراً عربياً فى لغته عربياً أو كالعربى فى أسلوبه وبعض معانيه وأخيلته ؟ حسبهم إذن ذلك الشعر البدوى القديم ، فليقنعوا به ، وليشحذوا به ملكتهم الشعرية ثم ليتركوا الأدب البدوى المعاصر لهم يذهب به ماذهب بنفوذ الأعراب ، وتقاليد الأعراب وعقول الأعراب .

* * *

ودع عنك أثر الشعوب التى تألفت منها الدولة العباسية فى الأدب ودع عنك جهود الشعب الفارسى منها بنوع خاص ، وانظر معى إلى أثر هؤلاء وأولئك فى الأخلاق والأذواق .

فكما احتجب الأدب العربى البحت حين عدا عليه الأدب الفارسى الجديد فكذلك احتجبت المرأة العربية الحرة ولزمت بيتها لاتبرحه وتركت ميدان الأدب والاجتماع لتلك المرأة الغريبـــة التى غشيت مجالس الأدباء واتصلت بالكتاب منهم والشعراء وأثرت فى أدبهم تأثيراً مخالفا كل المخالفة لتأثير المرأة العربية الحرة فى شعراء العصرين الجاهلى والأموى . ويومئذ كانت تلك تمثـــل الخلق العربى بالمعنى الصحيح ، وكانت أهلا لتقدير الرجال ، وكانت موضعا لحبهم واحترامهم ، وكانت هى من جانبها توحى إليهم شعراً يصح أن يكون المثل الأعلى لسمو العاطفة . وهؤلاء شعراء بنى عذرة ترجم شعرهم عن أنبل

المشاعر وفى غزل عفيف وأدب لطيف وهذه ليلى الأخيلية وشعرها فى توبة الخفاجى يدل على صدق العاطفة وطهرها ، وسيرتها تدل على ذلك أيضاً . كانت تقابل من تقابل من الخلفاء والأمراء فيداعبونها بأخبارها مع توبة ويسألونها أن تنشدهم شعرها فيه فتفعل وهى على ثقة من احترامهم لها وإكبارها لنبل شعورها . من ذلك مثلا أنها دخلت يوما على الحجاج فطأطأ لها رأسه حتى ظن الجالسون أن ذقنه قد أصابت الأرض (١) ؟

وأما المرأة العباسية فلم تكن كذلك ، كانت امرأة فارسية أو رومية أو مغربية أو هندية . وكانت امرأة لا تأخذ نفسها بالعفة والشرف لأنها جارية والجارية لاتؤخذ عادة بتلك القيود الأخلاقية التى تؤخذ بها الحرائر . وكانت امرأة متعلمة متحضرة وليست جاهلة متبدية ، لأنها كانت تباع وتشرى وكان يزيد فى ثمنها ويغلى من قيمتها أن تتوفر فيها شروط عدة : منها أن تكون جميلة الوجه ، رخيمة الصوت ، عذبة اللحن ، رقيقة الألفاظ ، رشيقة الحركات طروبا لعوبا ، حافظة للأشعار ، راوية للملح والأخبار ، عارفة بالأدب معرفة لابأس بها !

كما كانت هذه المرأة لاترى غالبا إلافى أسواق الرقيق ، وفى مجالس الغناء وأندية اللهو والعبث والمجانة التى لم تكن تقل فى لهوها وعبثها عن أندية باريس فى الوقت الحاضر . وكان فتيان العرب يختلفون إلى هذه

---

(١) ج ١ من الأمالى لأبى على القالى ص ٨٦ طبعة بولاق .

الأندية ويستمعون إلى غناء الجوارى ويمتعون أنفسهم بجمالهن ويخلطون أنفسهم بهن مخالطة ليست فى مجموعها شريفة ولا طاهرة .

وكان كل شاعر أو أديب مستهاماً بجارية من الجوارى يتملقها كثيراً ، ويقصد إليها كثيراً ويعشقها عشقاً لا يخلو من سوء . فكان لمسلم بن الوليد (سحر) . وكان للعباس بن الأحنف (فوز) كما كان لأبى نواس (جنان) .

وفى الحق أن الجوارى كن مغنيا عظيما الأدب والفن والذوق معاً ، والحق أنهن نهضن بالتربية الجمالية التى أخذن بها الشعب . ولكن الجوارى كن فى الوقت نفسه خسارة عظمى فقط على الأخلاق ، وعليهن تقع التبعة كلها فى ذلك . وما للجارية وللأخلاق ؟ أليست تباع وتشترى فى الأسواق كما تباع السلع ؟ أليست تقضى كل أوقاتها فى مجالس الغناء ، وناهيك بهذه المجالس ، وبما فيها من خلاعة ومجانة وبدع ؟

ولا تقل أن الإسلام كان لا يجيز هذه الأخلاق ولا يسمح بها . فقد دخلت فى الإسلام شعوب كثيرة ، ودخلت كلها فى هذا الدين بعقولها وآدابها وأخلاقها لا بعقول العرب وأخلاقهم وآدابهم . وكان الشعب الفارسى بنوع خاص رائد الجميع فى ميادين اللذة ، وقائد الجميع إلى تلك المتعة . فبدأ حركته هذه بنشر أخبار الملوك الساسانيين — فى مجالسهم الخاصة التى كانوا يجلسون فيها لتعاطى الشراب وسماع الغناء من أمثال (يوشت) ، و (الفهيلذ) وغيرهما من أعلام المطربين ونوابغ المغنين وسترى بعد حين كيف أن الطبيعة الفارسية نفسها بالقياس إلى طبائع الأمم الأخرى فى ذلك الحين كانت تميل إلى اللذة المادية وحدها تؤثرها على غيرها وتسلك فى سبيل الحصول عليها كل طريق .

الفصل الثانى

الثقافة الفارسية بين عناصر الثقافة الإسلامية

لم تكن الثقافة الإسلامية مؤلفة من العنصر العربى وحده ، بل كانت مؤلفة منه ومن عناصر مختلفة وأصول متباينة :

ففى هذه الثقافة الإسلامية عنصر يونانى ، والعقل اليونانى ميال إلى فلسفة التعليل والتحليل ، وميله إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، وآية ذلك أن الحضارة اليونانية نفسها حضارة معنوية فى جملتها ، وأن التماثيل اليونانية لم يكن يقصد فيها إلى الجمال الفنى الظاهر بمقدار ما قصد فيها إلى أن تكون موحية بمعنى خاص ، معبرة عن شعور معين . ومن هنا كان الفن اليونانى فناً للفن ، والعلم اليونانى علماً للعلم ، والفلسفة اليونانية فلسفة للفلسفة .

وفى هذه الثقافة الإسلامية عنصر هندى ، انتقل إليها من طريقين أما أولهما فطريق الهنود أنفسهم بعد الفتح الإسلامى . وأما ثانيهما فطريق الفرس الذين كانوا قد تأثروا بالفلسفة الهندية منذ فتوح الإسكندر الأكبر ثم نشروا ثقافتهم الفارسية الممتزجة بالعنصر الهندى بعد الفتح الإسلامى ، والفلسفة الهندية فلسفة تأمل ؛ والعقل الهندى عقل دينى قبل كل شىء ؛ والأفكار الهندية — فيما يقول الباحثون — هى إلى الخيال أقرب منها إلى الواقع ، وهى إلى أن تكون أفكاراً ملائمة للشعر أقرب منها إلى أن تكون أفكاراً ملائمة للعلم . يريد الهندى أن يوضح لنا — مثلا — كيف خلق هذا العالم ، فيقول :

أنه خرج من خالقه (برهمن) كما يخرج الضوء من الشمس ، وكما ينبعث الشذى من الزهر ، وكما يخرج الشرر من النار . وهذا كلام يعجب الأديب ولكن لا يقنع به العالم . والفلسفة اليونانية لا تقنع بهذه الأخيلة الشعرية فيما تسميه علماً بالمعنى الصحيح ، بل أنها تتبع فى تفكيرها طريق البحث العلمى . من أجل هذا كان العلم أولا فى اليونانيين وكان تفكير هؤلاء مطابقاً دائماً للمنطق . ومن أجل هذا كان الزهد والتصوف والفلسفة الدينية فى الهنود ، وكان تفكير هؤلاء أشد اتصالا بالعاطفة .

وفى هذه الثقافة الإسلامية عنصر فارسى وهذا العنصر نفسه — كما سترى — مؤلف من جزئيات ثلاث هى : الفارسية واليونانية والهندية(١) .

---

(١) الحق إن الفلسفة الايرانية ليست يونانية فى أكثرها بل هى هندية أكثر منها يونانية ، وربما كان سبب ذلك أن الأمة الايرانية القديمة أمة آرية ، والآريون جنس كان يشمل فيما يشمل أهل الهند وإيران فى وقت معا ، وقد وجدت الدلائل العديدة التى تدلنا على أن هؤلاء الآريين من هنود وإيرانيين قد عاشوا جميعا فى عصر واحد من عصور التاريخ ، وجمعتهم أرض واحدة يرجح الكثيرون أنها بلاد تركستان الحالية ومن هذه الدلائل كما يقول الدكتور عبد الوهاب عزام تشابه بعض العقائد الدينية عند الأمتين ، وتشابه بعض الأسماء التى تطلقها كل أمة منهما على الآلهة وغيرها . فمن هذه الأسماء (أسورا) علماً على إله عند الهنود ، (وسوما) اسما لشراب مقدس عندهم أيضاً (وترتيرا) علماً على حيوان خرافى يشبه التنين . فان هذه الأسماء جميعها فى اللغة الهندية يقابلها فى الايرانية (آهورا) وهو علم على إله من آلهة الفرس القديمة ، (وهوما) وهو اسم لذلك الشراب المقدس أيضاً ، (ترتيرا) علماً على طبيب يعرف فى الشهنامة بأنه انقلب إلى ثعبان ثم تحول إلى ملك شرير اسمه الضحاك ، والأمم تفنى ولكن تظل أساطيرها باقية تمكن الناس من الوصول إلى كثير من الحقائق التاريخية الهامة ، ولعل من تشابه العقائد عند الأمتين أن كلا منهما تعتقد فى نظام ثابت يسيطر على الحياة نفسها =

ولكن الحضارة الفارسية مادية فى أكثرها ، وبنايات الفرس الهائلة وأبهتهم العظيمة تبهرك حقاً وتروعك حقاً ولكنها لا تدلك على معنى وراء ذلك .

وفى الثقافة الإسلامية عنصر سوريانى ولكنه يونانى فى أكثره ، لأن السوريان هم الذين قاموا بنشر الفلسفة اليونانية ولم يقتصروا عليها حتى ترجموا لأنفسهم أيضاً من اللغة الفهلوية شيئاً لا بأس به . والسوريان بوجه عام هم الذين خدموا العلم والفلسفة بتراجمهم أكثر مما خدموهما

= ويرجع فى جوهره إلى أصلين فقط هما الخير والشر أو هما القوتان اللتان تقتسمان بينهما هذا العالم ، ولعل من هذا التشابه أيضاً هذه الظاهرة البسيطة وهى أن كلا منهما تقدس البقر وأنهما تقدسان النار وتقيمان عليها سدنة وحجاباً ، وتطلقان على حفظة النار أسماء متشابهة ، فأما الهنود فيطلقون على الواحد من هؤلاء اسم (أثروان) بفتح الثاء ، وأما الفرس فيطلقون عليه إسم (أثروان) بسكونها ، ثم إن كلمة (أهورا) التى سبق ذكرها صارت رمزاً لآلهة الخير عند الفرس ، وصارت الكلمة المقابلة لها (أثورا) رمزاً لآلهة الشر فى بلاد الهند . وهذا هو الشأن فى كلمة (ديوا) فهى تدل عند الهنود على معنى التقديس ولكنها تشير عند الفرس إلى معنى الشيطان ، وهنا لا تعجب من تفسير العلماء هذه الظاهرة : فهم يقولون إنه لابد أن تكون خصومة قديمة قد حدثت بين هاتين الأمتين أدت إلى أن تسب كل منهما آلهة الأخرى ، ثم افترقنا على هذه الحال فسارت إحداهما إلى الجنوب الشرقى وسارت الأخرى إلى الجنوب الغربى واستوطنت الأولى بلاد الهند وسكنت الثانية بلاد إيران . منذ ذلك الوقت اختلفت أخلاق الأمتين وميولها ، فمال الهندى إلى فلسفة الاعتزال والتأمل ، ونزع إلى التفكير فى العالم والتجرد من أدرانه وشروره فامتازت الديانة البوذية نفسها بجميع هذه الخصال ، ومال الايرانى إلى اللذة والسعادة ورأى الخير كل الخير فى أن ينغمس بنفسه فى العالم يجد فيه ويعمل ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس من حياة وحركة ونشاط فيأخذ بنصيبه من ذلك كله معيناً بجده ونشاطه وفرحه ومرحه آلهة الخير خاذلا بكل ذلك آلهة الشر .

بتآليفهم ، فلم يكن لهم فضل ابتكار أو اختراع . وإنما كان لهم فضل نقل وترجمة .

ومهما يكن من شيء فإن الذى اتفق عليه الباحثون فى أمر الثقافة الإسلامية هو أن أقوى العناصر التى تتألف منها عنصران هما العنصر الفارسى والعنصر اليونانى . ولكنهم اختلفوا ، أى هذين العنصرين كانت له الغلبة ؟ وأيهما ترك فى الأدب العربى والعقل العربى أثراً أعمق مما تركه الآخر ؟

وممن يقولون بالرأى الأول الدكتور طه حسين وهو يرى « أن التأثير اليونانى أقوى من التأثير الفارسى رغم أن كثرة الكتاب من الفرس . وذلك أن الثقافة اليونانية كانت قديمة العهد فى هذه البلاد منذ أيام الاسكندر المقدونى فى القرن الثالث ق . م ، ولم ينته القرن الثانى ق . م حتى كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للشرق الأدنى ، ولم يكد يتقدم التاريخ المسيحى حتى كانت كل بلاد الشرق الأدنى فى مصر وسوريا والعراق قد أنشئت فيها مدارس يونانية تعلم الفلسفة والأدب وعلوم البيان »[1] .

وأما الرأى الثانى فيقول به أكثر المستشرقين والمؤرخين ، وهو أن التأثير الفارسى فى الأدب العربى كان أقوى وأعظم من التأثير اليونانى . وبرهانهم على ذلك أن أكثر الكتاب الذين ظهروا فى الإسلام من الفرس الذين ولدوا فى أحضان فن جديد من فنون الأدب هو « الكتابة » .

وأنا أعتقد ما يعتقده الدكتور طه حسين من أن اليونان قادة

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٣٨ .

الفكر فى العالم ، وأن علوم الأمم كلها تمت بسبب إلى العلم اليونانى ؛ ولكنى أعتقد مع ذلك أن فضلهم يقف عند هذا الحد . فللفلسفة اليونانية أن تغزو بلاد الفرس وللفكر اليونانى أن يقتحم بلادالروم، ولكن ليس بد من أن يفهم الفرس تلك الثقافة كما يحبون أو ينظر الروم إلى ذلك الفكر بالمنظار الذى به يمتـــازون . وليس لهؤلاء ولا أولئك أن يستعيروا من اليونان أنظارهم وميولهم وأهواءهم كما استعاروا منهم ثقافتهم وتفكيرهم وعلومهم . ومعنى ذلك أنه إذا دخلت الفلسفة اليونانية وطناً ما أصبحت فلسفة فارسية أكثر منها يونانية فى بلاد الفرس ، كما أصبحت رومانية أكثر منها يونانية فى بلاد الروم وهكذا . . . على أن الإيرانيين لم يكونوا بمعزل عن الهند ، والثقافة الفارسية كان فيها عنصر هندى ، إلى جانب العنصر اليونانى ولكنها مع هذا وذاك ثقافة إيرانية قبـــل أن تصطبغ بهاتين الصبغتين اليونانية والهندية .

ذلك فيما يختص بالتفكير الإسلامى عامة . أما من حيث الأدب الإسلامى خاصة . فلا محل للنزاع فى عظم الدين الذى فى عنقه للثقافة الفارسية ، وفى غلبة هذا الدين على الثقافة اليونانية الخالصة .

والحق أن للمستشرقين والمؤرخين عذراً فيما ذهبوا إليه ، وأن لهم عذراً فيما استدلوا به . فهذا (كتاب الفهرست) لابن النديم ــ وهو المصدر الأساسى لتاريخ الكتب العربية التى ظهرت منذ القرون الأولى للهجرة ــ مملوء بما خلفه الفرس من آثار أدبية أصولها فارسية سوف نحدثك عنها . وقد وضح لنا الأستاذ (انيوسترانسيف) فى كتابه (التأثير الإيرانى فى الأدب الإسلامى) بجلاء مقـــدار هذه الآثار

الفارسية ، وتصفح لنا كتاب الفهرست فأثبت أن هذه الآثار تشغل من صفحاته حيزاً كبيراً بالقياس إلى غيرها ، وقام فعلا بإحصائها وشرح قيمة المهم منها شرحا يؤمن القارىء معه بتفوق الأثر الفارسى فى أدبنا الإسلامى على كل أثر سواه .

والذى لا ريب فيه أن العرب اتصلوا اتصالا مباشراً بالثقافة الفارسية ، ولم يتصلوا بشىء يذكر من ثقافة اليونان .

« فلم يعرف العرب الجمهورية والقوانين لأفلاطون ولا السياسة لأرسطو ، ولم تصلهم سوى بعض الحكم السياسية أخذت من هنا وهناك دون قاعدة ما »(١) .

وهكذا كان تفوق الفرس الأدبى نتيجة طبيعية لتفوقهم السياسى . ومهما قيل فى هذه الثقافات الفارسية أو اليونانية وغيرها . فإن أثرها فى الثقافة الإسلامية لم يكن يتعدى فى جملته أموراً ثلاثة :

(أولها) الألفاظ اللغوية الجديدة التى أخذها المسلمون من الفرس مرة واليونانيين أخرى والهنود مرة ثالثة . وأمر هذه الألفاظ الدخيلة معروف لدى المشتغلين باللغة وليس يعنينا هنا أن نحصى هذه الألفاظ ولا أن نوازن بين ما دخل منها عن طريق الفرس ، وما دخل منها عن طريق الهنود وما دخل منها عن طريق اليونان .

(وثانيها) العلوم التى نقلها المسلمون عن هذه الأمم وفى هذه الناحية يتفوق الأثر اليونانى نوعا ما على الأثرين الفارسى والهندى . فنرى أن العلم الذى استعاره المسلمون من الأجانب كان أكثره يونانياً بحتاً ، ولم يكن العلم الذى أخذه المسلمون عن الفرس والهنود يتجاوز كتباً فى التنجيم والسير والتاريخ والهندسة والدين الفارسى القديم .

---

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٥٢ .

أما العلم الذى أفاده المسلمون من اليونان فهو المنطق والطب والهندسة والنجوم والفلسفة . ولا تنس أن الأمتين الفارسية والهندية كانتا مدينتين بعلومهما لليونان .

أليس قد فتح الاسكندر المقدونى بلاد الشرق الأدنى جميعها؟ أليست مملكته قدَ اشتملت على مقدونية واليونان ومصر وليبيا وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد الفرس وتركستان وأفغانستان وبلوخستان وقسما من بلاد الهند أيضا ؟ ثم أليس الفتح المقدونى نفسه كان فتحاً حربياً وأدبياً معاً ؟ وأليست الثقافة اليونانية قد بقيت فى هذه الأمم جميعها حتى بعد خروج الجيوش اليونانية منها ؟

بلى — كانت هذه الثقافة قد مكنت لنفسها فى هذه الأمم جميعها، وكانت تحمل لواء هذه الثقافة مدن ثلاث بنوع خاص هى مدينة (جند يسابور) فى خوزستان وهى المدينة التى أسسها سابور الأول ، ومدينة (حران) فى الجزيرة — وهى التى كانت موطناً للصابئة . ومدينة (الاسكندرية) فى مصر وفيها ظهر مذهب الأفلاطونية الحديثة .

وأما (ثالث) الأمور التى ظهر فيها أثر الثقافات الأجنبية فى الثقافة الإسلامية فهو الأدب وفى هذه الناحية يتفوق العنصر الفارسى على بقية العناصر الأخرى ومنها العنصر اليونانى — كما قدمنا — ولذلك التفوق أسباب كثيرة منها : — (السبب السياسى) كسيطرة الفرس فى الدولة العباسية ، ومحاولتهم نشر الآداب الفارسية ، وامتلاكهم قلوب الرعية عن طريق الأدب ، والأدب أكثر صلاحية للدعاية السياسية من العلم .

ومنها (السبب الدينى) . وبيان ذلك أن العقائد اليونانية الوثنية